موقف الفريق من الدكتاتورية
في مصر

كان الفريق في نزهاتنا في القناطر الخيرية، حيث المناظر رائعة، وحيث طفلانا سلام ويوسف يلعبان بين الأشجار ومعهما مرافقنا والسائق، يشعر بالحرية ليقول ما بنفسه.. كنا ننزل في ضيافة ناصر في قصر الجيزة، وعندنا ثلاثة عشر رقيبا من المستخدمين، وكان عفيف يتحسس الجدران منذ وصوله، فقد قيل لنا من أناس يثق بهم في مصرأثناء المحادثات عن الوحدة، أن مخابراته تضع أجهزة تنصت في كل غرف الإستراحات التي ينزل فيها ضيوفه من عرب وأجانب، حتى في غرف النوم! يقول لي وقد أمن أجهزة التنصت ونحن نجول بين الشجر.. "ان عبد الناصر حين يريد أن يخدم الأمريكيين، يذهب الى السوفييت ليأخذ موافقتهم.. وهكذا يغطي انحرافه الإيجابي عن الحياد الإيجابي الذي يتظاهر بالإلتزام به!"..

وفي دراسته "الناصرية في جملة الإستعمار الحديث" كشف الكثير من تصرفات عبد الناصر.. وكشف التناقض بين الإستعمارين الأمريكي والبريطاني في منطقة الشرق الأوسط.. لقد تساهلت أمريكا في زعامته للأمة العربية بعد أن وثقت أنه يقف الى جانبها في الصراع الدولي بين الشرق والغرب.. كان دور عبد الناصر في مخططها أن يطرد لها الإستعمار القديم باسم الوحدة العربية حتى تحل مكانه وتنعم وحدها ببترول وثروات الأمة العربية..

وحين قام اللواء بزري بعقد صفقة الأسلحة مع الإتحاد السوفياتي في بداية عام 1955 سارع عبد الناصرفي ايلول من نفس العام لعقد صفقة أسلحة من تشيكوسلوفاكيا، لا ليحمي منجزات الشعب المصري، ولا ليستردّ فلسطين، ولا ليحمي مصر من الإستعمار الحديث الذي تمثله أميركا، بل ليقوم بدوره في طرد الإستعمار القديم من جميع الدول العربية، لصالح الولايات المتحدة، واستعمارها الحديث..

في كتابه لعبة الأمم تحدث مايلز كوبلاند وهو أحد مبعوثي السي آي اي الى عبد الناصر حين حدثه عن صفقة الأسلحة التي ينوي شراءها من تشيكوسلوفاكيا فكان ردّه: "حسنا، سيجعلك هذا بطلا وطنيا في نظر الأمة العربية"..

لم تكن أميركا تريد أن تبيع السلاح لعبد الناصر لتحارب به شركاءها من الإستعمار القديم، ودفعته ليشتريه من الكتلة الشرقية حتى يبدو كبطل معاد للإستعمار.. وقد أوضح الفريق في كتابه "الناصرية في جملة الإستعمار الحديث" الذي حورب من جميع الفئات ولم ير النور، وقبع في أقبية المباحث لأنه يفضح اللعبة الميكيافيلية في جرّ الأوطان العربية واحدة بعد الأخرى تحت المظلة الأمريكية! حتى السوفييت والشيوعيين غضبوا لأنهم كانوا على اعتقاد بأن العدوان الثلاثي على مصر توقف بفضل تهديداتهم بالتدخل!

ذهب اللواء على رأس فوج الى الأردن للتنسيق معه في شؤون الدفاع عن الشقيقة مصر، فاكتشف أنه يتآمر مع عراق نوري السعيد للإطاحة بالحكم الوطني في سوريا، وذهب في زيارة خاطفة الى مصر للسبب نفسه، فقال له عبد الناصر، بأن مصر ستتدبّر شؤونها ولا تريد لسوريا أن تتدخل!.. وفي الأردن كان فوج عراقي يعسكر قربه بقيادة عبد الكريم قاسم فتعارفا وتصادقا، وأسر اليه عن نيته للإطاحة بالحكم الملكي ويريد دعم قيادة الجيش السوري فوعده باستعداد سورية لدعمه بالسلاح، وفي حال فشل الثورة أن تضم الثوار الى جيشها..

وحين قامت ثورة 15 تموز قرر الفريق عودتنا الى سوريا، ولم أكن أعرف الأسباب التي تدفعه الى ذلك.. ولما حدث انفصال الوحدة كنا في بلغاريا لاجئين فعدنا الى سوريا.. وبدأ عفيف يكتب للصحف عن هذه الثورة.. وقد جاء في جريدة النصرعدد5214 الأحد 1 تموز 1962–29 محرم 1382 ما يلي:

حقائق مذهلة يكشفها عفيف البزري.

عبد الناصر أطلع أمريكا على أسرار الثورة العراقية قبل وقوعها.. الناصرية تعمل على إجهاض الحركات الثورية لحساب أمريكا.

كشف الفريق المتقاعد عفيف البزري أسرارا جديدة مذهلة عن تعاون الناصرية مع الإستعمار الأمريكي، أكد أن عبد الحميد السراج نقل الى عبد الناصر أسرار الإتصالات بين الضباط العراقيين الأحرار والضباط السوريين قبل ثورة 14 تموزفي العراق، وأن عبد

الناصر نقل بدوره هذه الأسرار الى الأمريكيين وأطلعهم على توقيت انقلاب عبد الكريم قاسم، اتضح أن عبد الناصر يعمل على إجهاض الحركات الثورية العربية وتحويلها الى حركات انتهازية تنزلق الى أحضان النفوذ الأمريكي، عبد الناصر اعترف علنا بأنه اتصل مع مع أمريكا خلال ثورة 58 للتفاهم على أسماء الحكام الجدد في لبنان وهذا بيان الفريق المتقاعد عفيف البزري:

عبد الناصر يعمل لأمريكا

ضباط عراقيون يتصلون بالقيادة السورية

"في أيام أزمة السويس والعدوان الإستعماري على بور سعيد، كنت آمرا لقطعة سورية تعسكر في شمال الأردن، وكان يعسكر الى جانبنا جحفل عراقي بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم، وكان يرد الى قيادة الجيش السوري في تلك الأثناء أخبار عن مؤامرة كبرى يحبكها نوري السعيد للإطاحة باستقلالنا. فتلقيت لذلك تعليمات من قيادة جيشنا بمحاولة الإتصال بالضباط العراقيين للإطلاع على آرائهم في الأوضاع العربية بصورة عامة، وآرائهم بموقف حكومتهم التي كانت تتآمر علينا.

قمت بالإتصالات اللازمة وهيأت في أواخر تشرين الثاني عام 1956 لقاءا سوريا عراقيا في خيمة قرب مطار المفرق، وكان في هذا اللقاء من الجانب السوري رئيس الأركان توفيق نظام الدين وأنا وأمين النفوري وعبد الحميد السراج. وكان من الجانب العراقي الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف.

وبعد أخذ وردّ طويلين أفضى الينا الزعيم قاسم بسر خطير يتلخص بأن هنالك منظمة واسعة جدا من الضباط الأحرار العراقيين، وأن هذه المنظمة والأكثرية الساحقة من الجيش والشعب العراقي غير راضين عن أوضاعهم في العراق. وهم ينتظرون الفرصة الملائمة للقضاء على على تلك الأوضاع الفاسدة. وقد شرح لنا خطة المنظمة آنفة الذكر للوصول الى هذا الهدف، وأضاف بأنه وإخوانه لن يكرروا أخطاء حركة عام 1941 فيتركوا المجرمين يفرون الى خارج العراق، ليعودوا بعد ذلك على رأس قوات أجنبية تساعدهم على إذلال الشعب العراقي مرة أخرى، بل ان الثورة لن تندلع الاّ اذا ضمن الثوار وجود جميع أولئك المجرمين للقبض عليهم.

ثم اننا التقينا بالضباط العراقيين، بعد هذا اللقاء عددا من المرات، وفي آخر مـــرة أي قبل عودة الجحفل الى بغداد، طلب الينا الزعيم قاسم أن لا نحاول الإتصال به في العـــراق لأنه هو الذي سيدبر هذا الأمر بقيادة من يثق به الى دمشق. وذلك حفظـــا للـــسر. الاّ أن أخباره انقطعت عنا حتى قيام ثورة 14 تموز.

السراج في خدمة عبد الناصر

كان استمرار اتصالنا بالضباط العراقيين مفيدا لنا جـــدا فـــي ظـــروف المـــؤامرات الإستعمارية التي كانت تحيط بسوريا طيلة عام 1957، فبعد اكتشاف مؤامرة ستون، جـــن جنون الإستعمار الأمريكي. وأخذ دلس وزير خارجية أمريكا يحرض علينا شقيقاتنا الدول العربية: لبنان والعراق والأردن والسعودية، وأصدر بيانه الشهير بأن سوريا تشكل خطرا على كيان واستقلال هذه الشقيقات. وكل سوري يتذكر جيدا تلك الظروف العـــصيبة التـــي مررنا بها حينذاك. وكان من الطبيعي آنذاك أن نتذكر صداقاتنا في الجيش العراقي، فطلبت من السراج، رئيس الشعبة الثانية في جيشنا، أن يفعل كل ما باستطاعته للإتصال بـــالزعيم عبد الكريم قاسم، فقال لي أن هذا الأمر صعب وغير مفيد، لأنه لديه معلومات تدل علـــى عدم إخلاص هذا القائد العراقي. فأكدت أمري بإقامة الإتصال بالضباط العراقيين الأحرار بأي ثمن، لما في هذا الإتصال من فائدة كبيرة لنا بمنع نوري السعيد وطغمتـــه مـــن جـــر الجيش العراقي الشقيق الى مواقف تسيء الينا. ثم ان الأمور تطورت بعد ذلـــك، واتجـــه الأمريكان الى تحريض تركيا لغزونا، وقام الحشد التركي بالفعل على حدودنا الشمالية. الاّ أن فائدتنا من موقف ملائم للجيش العراقي آنذاك كانت وما تزال قائمة. فساءلت الـــسراج مرة عما تمّ بمسألة الإتصال بالزعيم قاسم، فأجابني أن شيئا لم يتم بعد، لأن قاسم على حد قوله يتهرّب من كل اتصال بنا.

وأضاف السراج قائلا أن لديه معلومات أكيدة تفيد بأن قاسم هو من جماعـــة نـــوري السعيد وكان كاذبا، لأن اتصاله بالقائد العراقي المذكور لم ينقطع أبـــدا، فكـــان الـــضباط الأحرار العراقيون يأتون الى دمشق بلا انقطاع، وكانوا يتصلون بالسراج، كممثل للقيـــادة السورية، الاّ أن هذا الأخير كان يحتفظ بهذه الأسرار، لا لقيادة الجـــيش الـــسوري، وهـــو رئيس الشعبة الثانية في أركان الجيش، وإنما لعبد الناصر. ومن المؤسف أن هذا الأمر بقي

مجهولا من قيادة الجيش، ولم يدر به الاّ بعد فوات الأوان مع أنه يشكل كما يتضح جريمة بشعة ارتكبها السراج والناصرية.

الهدف تشتيت القوى الثورية

ليس من حق السراج أن يكتم عن قيادة جيشه معلومات كهذه، على درجة كبيرة من الخطورة، وكانت في وقتها في غاية الأهمية والفائدة للدفاع عن استقلال سورية. وليس من حق عبد الناصر أن يتصل بالسراج من وراء ضهر الجميع، فيحرّضه على كتم هذه المعلومات الخطيرة عن الجيش السوري الذي يشترك مع الجيش المصري في قيادة مشتركة في تلك الأيام. لقد كانت سورية مستقلة آنذاك، وهي دولة عربية كانت تحيط بها أخطار مميتة، فكانت بأمس الحاجة الى تلك المعلومات في تلك الظروف. بل ان تاريخ المنطقة كلها كان يتغير لصالح العرب قاطبة لو لم يخف عنا السراج بتحريض من عبد الناصر، هذه الإتصالات بضباط الجيش العراقي الشقيق. ومن الواضح أن هدف عبد الناصر وهدف سياسته من هذا الفعل هو:

منع القوى العربية الثورية من الإتصال ببعضها البعض، ليسهل عليه تشتت هذه القوة، وليسهل عليه بالتالي ابتلاع الأقطار العربية الواحد بعد الآخر. فسوريا مثلا تكون أكثر لينا للوقوع في شباكه عندما تجهل الأوضاع على حقيقتها في العراق. ثم ان ابتلاع العراق يكون أسهل بعد ابتلاع سوريا..

لقد عرفت عبد الناصر بعد قيام الوحدة مع مصر، بأنه كان يستخدم السراج لمعرفة تطورات الأمور في العراق. فبلغني في أوائل عام 1958 أن رئيس المخابرات المصرية كمال رفعت جمع بعض اللاجئين العرب في دمشق وقال لهم أن يكونوا على استعداد لأن أحداثا خطيرة ستقع عما قريب في العراق. وعندما اندلعت ثورة الرابع عشر من تموز كنت في القاهرة. فعدت الى دمشق في ذات النهار، على الرغم من عدم رضاء السلطات الناصرية. كنت عضوا في مجلس وهمي لا وجود له، وهومجلس التخطيط الأعلى، وكنت أقضي وقتي بدون أي عمل في هذه الوظيفة الوهمية. وقدرت أن سورية أصبحت في خطر من الإستعمارين، الأميركي والإنجليزي، وأن من واجبي أن أترك القاهرة الى دمشق، لأشترك في الدفاع عن وطني اذا ما دعت الحاجة الى ذلك. وقبل مغادرتي القاهرة، قابلت المشير عامر، وكان عنده عدد من المسؤولين، وأذكر منهم السراج وعلي صبري.

وقد أخبرني السراج بأنه أتى الى القاهرة في اليوم السابق، أي عشية ثورة العراق، وعندما سألته فيما اذا كان على علم مسبق بالحركة أجابني بالإيجاب، وقال أن ضابطا عراقيا أتى اليه في دمشق وأخبره بتوقيت الثورة. وكان مجيء هذا الضابط، على حسب قول السراج، في أوائل شهر تموز، أي في زمن قريب من ذلك الذي كان كمال رفعت يخبر فيه اللاجئين عن أحداث خطيرة ستقع في العراق.

وقد استدرك السراج، بقصد التمويه علي، أن هذا الضابط من غير جماعة الزعيم قاسم.. وفي طريق العودة الى دمشق كنت مع السراج في طائرة واحدة. وقد قص علي خلال السفر قصصا كثيرة عن الثوار العراقيين، وذلك بقصد التبجح وإظهار الخدمات الهائلة التي قدّمها لعبد الناصر بالذات في العراق.

وكان في كل هذه القصص يخفي كل ما قام به العراقيون من اتصال بالجيش السوري قبل الوحدة.

ان الصحافة الناصرية تبجحت بقولها أن عبد الناصر هو الذي دفع الضباط السوريين ليتصلوا بإخوانهم العراقيين في الأردن في أثناء حوادث السويس عام 1956 وكان هذا التبجح بعد أحداث الموصل الدامية، وبعد توتر العلاقات بين ناصر وقاسم. وقالت هذه الصحافة أن الرئيس عبد الناصر استمرّ بالإتصال بالجيش العراقي بعد ذلك "ليشرف" على تقدم العمل في تنظيمات الضباط الأحرار. وهنا لا بد لي من القول خدمة للتاريخ والحقيقة أن عبد الناصر ما كان في أيام العدوان الإستعماري على بور سعيد في وضع يسمح له بالتفكير في أمر الإتصال بالضباط العراقيين. وقد ذكرت آنفا الدوافع التي حدت بالقيادة السورية للقيام بهذا الإتصال. وانني أجزم هنا بأن اخواننا ضباط الجيش العراقي كانوا عندما اتصلنا بهم ممتلئين عزما للتخلص من حكامهم الفاسدين وما كان ليعوزهم أحد لتنظيم أمورهم..

بعد ثلاثة أيام

وقد اتضح لي الأمر بشكل جلي عندما أتى العقيد عبد السلام عارف الى دمشق ليجتمع لأول مرة بالرئيس ناصر، وذلك بعد ثلاثة أيام من قيام ثورة العراق فقد كنت في قصر الضيافة واقترب مني أحد مرافقي عبد السلام عارف وقدّم الي نفسه بصفته أحد ضباط الثورة وأحد الذين كان يرسلهم عبد الكريم قاسم الى قيادة الجيش السوري، وفهمت

منه أن السراج كان يمنعه من مقابلتي ومن مقابلة أي ضابط من ضباط الأركان في كل مرة كان يأتي فيها الى دمشق وذلك بمختلف الحجج.. وقد أصابني الذهول مما سمعت عندئذ وبدأت تشرق في ذهني الحقيقة عارية، حقيقة الناصرية المتآمرة مع السراج، عيننا وأذننا منذ ذلك التاريخ القديم.

التناقض بين الإستعمارين الأمريكي والبريطاني

سأحاول فيما يلي رواية ما شاهدته بعيني عند قيام ثورة العراق:

عندما قابلت المشير عامر قبل عودتي من القاهرة الى دمشق في اليوم الرابع عشر من تموز قلت له أن الأمركان لا بد نازلون في لبنان في الأيام القليلة المقبلة كما أن الإنجليز لا بد نازلون في الأردن، فعلينا لذلك أن نتخذ جميع ما يلزم من احتياطات للدفاع عن سورية ولمساعدة العراق اذا لزم الأمر، فأجاب وعلائم الإطمئنان بادية بوضوح على وجهه، أن لا خطر يهدد سورية. وقد استغربت آنذاك أشدّ الإستغراب هذا الجواب الأبلهفي الظاهر، كما دهشت لاطمئنان المشير..

في قصر المهاجرين

في اليوم التالي لوصولي الى دمشق أي في 15 تموزحضرت جلسة المجلس التنفيذي الذي كان مجتمعا في قصر المهاجرين. وقد لاحظت أن الوزراء أعضاء المجلس كانوا في حالة ضيق شديد بسبب ورود الأخبار عن الإنزال الأمريكي في لبنان، وهم لا يستطيعون فعل شيء بسبب غياب عبد الناصر خارج البلاد في زيارة ليوغوسلافيا، ولأن هذا الرئيس لم يترك لهم من الأمر شيئا. وأذكر أنني تدخلت في المناقشة وقلت لأعضاء المجلس أن سورية تمر بظرف دقيق جدا، وأن سلامتها مهدّدة بأشد الأخطار من الغزو الأمريكي. فيجب والحالة هذه عدم إضاعة الوقت باتخاذ بعض الخطوات اللازمة التي تجعلنا في وضع أفضل للدفاع عن أنفسنا، وأضفت أن غياب الرئيس لا ينزل عن كاهلنا مسؤولية العمل حالا لردّ غزو أمريكي لا يضمن أحد أبدا عدم وقوعه في سورية. عندئذ تدخل السراج وعارض أية خطوة تتخذ في سبيل تعزيز مواقعنا، وكان ينفذ بدون شك الأوامر التي تلقاها من القاهرة عندما كان فيها بالأمس..

بعد يومين من هذا التاريخ وصل عبد الناصر الى دمشق قادما من موسكو. وكان وصوله هذا مثار دهشة الجميع، فكل الناس كانوا يعرفون أنه كان في يوغوسلافيا. ولم يكن

منتظرا أن يأتي من موسكو. وكنت قد حضرت أول اجتماع له بالوزراء السوريين في قصر الضيافة، وسمعته يروي قصة ذهابه الى الإتحاد السوفياتي فقال: سمعت بثورة العراق وأنا أغادر يوغوسلافيا عائدا الى مصر. عندئذ عدت ونزلت في البر اليوغوسلافي حيث أخذت طائرة أوصلتني الى موسكو. وقد تداولت هنالك مع المسؤولين السوفييت في قضايا منطقتنا على ضوء التطورات الأخيرة التي سببتها ثورة العراق..

من الواضح أن هذه الرواية غير صحيحة، فهو لم يسمع بثورة العراق وهو في طريق عودته الى مصرلأنه كما رأينا وكما اعترف هو بذاته فيما بعد على علم مسبق بتوقيت هذه الثورة. وهو بعد أن ضمن موافقة الأمريكان على ضم العراق الى الناصرية أراد أن يضمن السوفييت لمخططه. وقد وقعت زيارته في الأيام التي ستقع فيهاالثورة العراقية وذلك ليهرع من هناك الى موسكو متظاهرا بالفزع من الإستعمار وبضرورة ضم العراق اليه. وتبين فيما بعد أنه قال للسوفييت أن الثوار العراقيين من رجاله وأنه هو الذي أشعل هذه الثورة ضد الإستعمار الخ.. وقد سمعت هذا الخبر من أحد الوزراء السوريين في القاهرة بعد عودتي اليها كما شاع بين الكثيرين هنالك..

لا إجراءات أبدا

ان السلطات الناصرية لم تتخذ في سورية عند نزولي اليها أية إجراءات عسكرية جدية. لم تعلن التعبئة، وبدلا من تعزيز تسليح المقاومة الشعبية جمعت أسلحة هذه المقاومة. أما في قصر الضيافة فقد كان الجو جو سلم بكل معنى الكلمة. وكانت مشاغل الرئيس عبدالناصر بعيدة كل البعد عن الإستعداد للخطر الأمريكي القابع على بعد مائة كيلو متر فقط عن بيروت. كان يجمع فؤاد جلال وخريجيه ويتكلم معهم عن كيفية بث الدعاية له في العراق. ومن المعروف أن جلال هذا تحت اسم جماعة الخريجين التي يرأسها والتي تمتد في جميع البلاد العربية يقوم بنشاط ناصري محموم، وهو يعدّ من أنشط دعاة الناصرية في البلاد العربية.

ثم انه لم يمض وقت طويل على وصول ناصر من موسكو الى دمشق حتى أخذ فؤاد جلال ومعاونوه طائرتين مليئتين بصور الرئيس ناصر، وبالمنشورات الناصرية، وذهبوا الى العراق. وتدفق بهذا الشكل جيش الناصريين على القطر الشقيق منذ الأيام الأولى

للثورة. وامتلأ العراق بهم . وكان من الواضح كل الوضوح أن عبد الناصر كان يعمل لتوجيه الثورة لصالحه. وكان في ذات الوقت مطمئنا كل الإطمئنان من جهة الأمريكان.

اعتراف عبد الناصر

واعترف عبد الناصر بخطاب له في أثناء وجوده في دمشق أيام ثورة الرابع عشر من تموز أن اتصالات كانت تجري بينه وبين الأمريكان، وأنه اتفق معهم على تغيير الحكم في لبنان، وحتى على أسماء الحكام الجدد، وذلك بحجة انهاء الحرب الأهلية التي كانت تقوم في القطر الشقيق آنذاك. وهذه حجة واهية جدا اذ ليس من حق أي عربي يحترم نفسه أن يعترف لمستعمر بحق التدخل في الشؤون الداخلية لبلد عربي شقيق. الاّ أن هذا الأمر يدلّ بوضوح تام على الصلات الوثيقة التي كانت تربط عبد الناصر بالأمريكان عشية الرابع عشر من تموز، يضاف الى هذا أن الحوادث كذّبت ادعاءات الأمريكان أنهم أتوا لحماية الحكومة الشرعية في لبنان أي حكومة شمعون. وانتهى الأمر الى تنفيذ اتفاقهم مع عبد الناصر بحذافيره، بحماية حرابهم، وضد نظام الحكم الذي جاؤوا لنجدته.. وبعد فمما لا شك فيه أنهم أتوا لنصرة سياسة عبد الناصر في المنطقة عند اندلاع لهيب ثورة العراق، الثورة التي كانوا على علم بها، كما بيّنا آنفا والتي تتخلص:

- بتصفية النفوذ البريطاني في لبنان وإحلال نفوذهم مكانه.
- بتهديد العناصر الوطنية المشتركة في ثورة العراق وإخافتها، ودفعها بالتالي الى الإرتماء في أحضان عبد الناصر.

الاّ أن الرياح جرت بما لم يشته الإستعمار الأمريكي، وعونه المخلص عبد الناصر.

عفيف البزري

نشر هذا المقال أيضا في صوت العرب الأحد 1 تموز 1962–29 محرم 1382 عدد2413

ونشر أيضا في دار الأيام العدد 7644

* * *

حين كنا في بلغاريا في آخر زمن الوحدة وقبل عودتنا بقليل الى سوريا جاء لزيارتنا ستيفانوس، سفير بلغاريا في سوريا، وأخبرنا أن السراج على خلاف مع عبد الناصر،

وأنه طلب منه اللجوء الى بلغاريا، فاعتذر بسبب تاريخه الملطخ بالمخازي والتنكيل بالشيوعيين. وسمعت أثناءها عن بدايات حياته، كيف كان دركيا في حلب يحمل البارودة على كتفيه وينطر باب السرايا العتيقة فيها، ثم جاء الى دمشق وعين مرافقا للزعيم حسني الزعيم الذي كان يقول "ليعطوني خمسين مليون دولار وأنا أوقع على وثيقة الصلح مع اسرائيل!" ثم أصبح ملازما في الجيش ثم ضابطا في معية الدكتاتور اللاحق أديب الشيشكلي الذي فر هاربا يوم وضع شعبها ثقله في الميزان، فتظاهر فيها نصف مليون انسان مطالبين بإسقاط حكمه، وكان السراج حينذاك ساعده ويمناه يسهر معه في بلودان وفي خرابو، ويشاركه فجوره ومؤامراته على الشعب وعلى رفاقه الضباط. ثم تبناه البعثيون: أكرم الحوراني وعبد الغني قنوت ومصطفى حمدون وجاؤوا به الى الشعبة الثانية.

كان الجيش منقسما على نفسه قبل الوحدة بين ضباط منتمين الى أحزاب مختلفة: قومية سورية وبعثية وتابعة لحزب الشعب وللكتلة الوطنية، وضباط من أصل فلسطيني لهم مصلحة قومية في تحرير بلدهم، ولقد برز التيار الوطني في الخمسينات إثر الغزو الإسرائيلي لفلسطين، وهجمة الإمبريالية الأمريكية على سوريا بعد سلسلة من المؤامرات كان يرأس المحاكمات فيها اللواء عفيف البزري. ومالبث أن انضم السراج الى التيار الوطني المعادي للإمبريالية، فوثق به بالرغم من تحذيرات رجال كثيرين عرفوا باستقامتهم، من أخلاقه المتقلبة، واستغلاله البشع للسلطة، وتنكره للمبادئ والقيم والأصدقاء.

قال له يوما اللواء توفيق نظام الدين الرئيس الأسبق للأركان العامة حين وقف اللواء بزري دون نقل السراج ملحقا عسكريا الى موسكو: "هذا الرجل سيتعبك كثيرا يا عفيف، لا تثق به دعه يرحل!".

ولكنه أصر على بقائه! فشخصية عفيف البالغة الإستقامة، الواثقة من نفسها، ومن نبل مقاصدها، والتفاف الجماهير حولها، لم تبالغ في تقييم صفات السراج السلبية لأنه كان يعمل ضمن جهاز وطني يفرض عليه الولاء والإستقامة!..

ولقد اقترف الخطأ نفسه مرة ثانية اذ حمى السراج حين أبعده أمين النفوري عن الشعبة الثانية الى الرابعة عندما عين الأخير رئيسا للشعبة الأولى التي بيدها تنقلات

الضباط، وكان بين الرجلين منافسة شديدة، فكلاهما كان من حزب التحرير التابع للشيشكلي، ويعرفان بعضهما أتمّ المعرفة، وانقلبا على الشيشكلي فيما بعد وانضما الى التيار الوطني. ولقد بقي النفوري مخلصا لتيار عفيف ولمبادئه الأخلاقية طوال حياته!.

كان إبعاد السراج عن الشعبة الثانية حجة للبعثيين للقيام بعصيان مسلّح في قطنا، ذلك العصيان الذي كان وراءه أكرم الحوراني ومصطفى حمدون، واختير فيه عضو جديد في البعث هو أمين الحافظ كواجهة للصدام ضد التيار الوطني الذي يمثله اللواء عفيف البزري وكتلة الضباط الفلسطينيين. وكان أحد أهدافه حين أصبح رئيس الأركان هو صهر الجيش في هدف واحد، وتسليحه من المنظومة الإشتراكية لمواجهة العدو الرئيسي للأمة العربية إسرائيل.. وما كان البعثيون الذين تبنوا السراج يدرون أنه سبقهم الى تقديم ولائه لعبد الناصر قبل قيام الوحدة، والذي كان محرضا على انقلاب يقوم به البعثيون لفرط الجبهة الوطنية الصلبة في مقاومتها للغزو الأمريكي على سوريا، وحرف النهج الديموقراطي فيها الى دكتاتورية تستطيع التعامل معها ضمن مصالحها في غياب الشعب.. وكان لتمرّد قطنا، وموقف اللواء عفيف البزري في رتق الصدع وإفشال المخطط الإجرامي كلمة حق جاهر بها أمين الحافظ مؤخرا في شهادته على العصر: "تلفن عبد الناصر لي ولمصطفى حمدون قائلا: "قلنا لكم اعملو انقلابا، فقمتم بمجرد عصيان!"..

أعاد عفيف السراج الى الشعبة الثانية، ولكن البعثيين ما كانوا راضين، لأن هدفهم هو انقلاب يستلمون فيه الحكم بدعم من عبد الناصر.. وكان هناك أزمة ثقة بين البعث كحزب يرفع شعارات الوحدة والحرية والإشتراكية، وبين حكم عبد الناصر الدكتاتوري الذي كان قادتهم يدعونه باحتقار حكم البكابشة!.

ما كان عفيف كالبعثيين يطمح الى انقلاب يستلم فيه سدة الرئاسة في البلاد. كان طموحه يتجاوز الدائرة الأنانية لحزب البعث وقادته، فالمرحلة الملحة هي مرحلة تحرر وطني من الإستعمار قديمه وحديثه!.. لقد حارب الإستعمار القديم في سورية، وخاض المعركة في فلسطين، وشكل قناعة عبر تجاربه واصطدامه مع الغزو الإمبريالي والديكتاتوريات المتعاقبة على سوريا، ومن خلال المحاكمات والمؤامرات، عن الدور الأمريكي البارز في حرف حركات التحرر العربية وإجهاضها وتحويلها الى مدّ انتهازي يخدم مصالحها الإمبريالية..

كان عفيف خريج السوربون في فرنسا، ونادرا ما كان يوجد في الجيوش العربية ضابطا في مثل ثقافته.. فالضباط في غالبيتهم، بل جلهم كانوا يدخلون الجيش بشهادة بكالوريا تؤهلهم لدخول الكلية العسكرية. وكان بطبعه محبا للمعرفة متفوقا في العلوم الرياضية والفيزيائية. ولقد دهشت بعد زواجي منه من تنوع الكتب التي كان يقرأها في فرنسا الى جانب اختصاصه الطبوغرافي: في الإقتصاد، والأدب الفرنسي، وكتب الفلاسفة الكبار، والمجلات العلمية والفيزيائية.. وكنت أستخدم كتبه في الأدب الفرنسي في مطلع زواجنا لأن علي أن أتقدم الى امتحان ال BA في الأدب الإنجليزي وكان مطلوبا مني أن أجيد اللغة الفرنسية أيضا التي اخترتها كبديل للغة اللاتينية.. وكم جلسنا في سريرنا أنا أدرس وأسأله أن يترجم لي جملة عسر علي فهمها.. وهو يقرأ كتابا اشتراكيا مترجما يشتريه من بائع بعد منعطف بوابة الصالحية، أو صحيفة الأومانيتيه، ونحن نسير من بيتنا في القصاع الى بيت أهله في بستان الرئيس. ويقرأ علي شعرا لأراغون أو يحدثني عن آخر أنباء مصدق، والمحاكمات التي أدانت جماعته، وصدر بحقهم حكم الإعدام بعد عودة الشاه ومعه السافاك الى الحكم. لقد خرج زاهدي من السفارة الأمريكية ليقوم بالإنقلاب على مصدق!..

ما كان البعث راضيا عن سير المحاكمات التي كانت تظهر فيها أميركا كقوة عدوانية وكانوا يقولون له: أميركا دولة عظمى، ولا ضرورة لكسب عدائها..

أما عفيف فانه منذ مقتل المالكي واختياره لمحاكمة قتلته كان واثقا أن أميركا ستلعب دورا مشؤوما في سورية شبيها بما فعلته في ايران، وستخترق الجيش السوري المختلف الإنتماءات لتجد فيه رجلا كزاهدي يخرج من السفارة الأميركية ليقوم بانقلاب على حكم وطني كحكم مصدق، وتعيد دكتاتورية الفرد أكان ملكا أو ثوريا منحرفا عن خط التحرير لبلاده مكتفيا بمجده الخاص وشبقه للسلطة، وعدّته شعارات زائفة وليس الإعداد الفعلي لمعركة التحرير، والدجل، وخداع الجماهير..

كانت وحدة الأمة العربية هاجسه للخلاص من نير الإستعمار.. وكانت سوريا سباقة للخلاص من الإستعمار القديم، فاذا تحدث عن وحدة فهي وحدة بين قطرين متحررين، ولهذا أدان في المحاكمات مؤامرة العجلاني حين أراد وحدة تقوم مع العراق، لأنه لا يزال

تحت نير الإستعمار البريطاني، ولأن الوحدة معه تجر قدم سوريا الأقل سكانا وموردا الى مواقع العراق وتزج بها في قفص المستعمرين..

هلّل عفيف البزري لتحرر مصر من الإستعمار القديم بعد اثني عشر عاما من تحرر سوريا منه، واستجاب لفكرة الوحدة معها بعد تأميم القناة.. وكنت أسمع تهليل الضباط في غرفة الإستقبال من منزلنا في عرنوس، وبينهم السراج وأحمد حنيدي وطعمة العودة الله وأكرم ديري وأحمد عبد الكريم وأمين النفوري وجادو عز الدين ولفيف من الضباط الفلسطينيين.. كان الفرح العارم يقيمهم ويقعدهم لإنجازات مصر على يد عبد الناصر، وهم يفترشون أرض الشرفة في منزلنا في عرنوس اذ ضاقت غرفة الإستقبال بهم.. كنا قد انتقلنا اليه من منزلنا في القصاع المشرف على الغوطة التي تمتد الى ألوف الأمتار فلا يمكن حمايته من الأخطار التي كنا عرضة لها في ذلك الحين بعد اغتيال المالكي والمحاكمات التي تلت ذلك..

أفرغ الجيش من الضباط المنتمين الى الحزب القومي السوري الذي أدين بمقتل المالكي، وكذلك من حزب الشعب بعد مؤامرة العجلاني.. وبقي فيه الضباط البعثيون، وجماعة حزب التحرير الذي أنشأه الشيشكلي في الجيش، والضباط الفلسطينيون المتعاطفون مع اللواء عفيف البزري، وعددهم مائتان لأنه يضع في أوليات مهامه تحرير بلادهم! فهو يستعد ليوم المعركة التي لا بد قادمة بشراء السلاح من المنظومة الإشتراكية بسعر رمزي منذ بداية عام 55

بدأت طموحات الضباط تكبر بعد تأميم القناة في أن تؤلف في سوريا حكومة عسكرية على غرار ما جرى في مصر. كان الشعب والجيش في معظمه يلتف حول القيادة العسكرية في البلاد، ولكن اللواء البزري كان يرفض دكتاتورية عسكرية جديدة على الشعب السوري تذيقه الويل والعذاب.. كان يفسّر لي الأمر بأن الحكم المطلق يعزل الشعب عن الحاكم فلا يستطيع أن يرضي ويؤمن مصالح كل الناس. وينتهي به الأمر ليكمم كل الأفواه، ويقيد حرية الفكر، ويستبد ويظلم ويضرب دون هوادة كل من يعارضه ولو كان من أهل بيته وأصدقائه.. وكان يحدثني عن الشيشكلي وسواه ممن عرف من طغاة.. ماكانوا كذلك قبل أن يقوموا بانقلابهم! وأذكر حين ركبنا سيارة الشيشكلي لأول مرة،

وكانت واحدة من ثلاث سيارات صممتها شركة ألمانية على غرار سيارة موسولوني بحيث لا يخترقها الرصاص أن قال لي: "سبحان الله! تقدمي، يركب سيارة فاشستي!"

كان يقول لي أن للجيش واجبا لا يجب أن يتجاوزه، وهو حماية الوطن من عدو خارجي، ولا يجب أن يتحول الى أداة لقمع الناس، وجلاد على معارضي سياسته. لأنه بالتالي يفقد سيطرته على شعبه ويستمد سلطته من الخارج. وليس أسهل من انحراف سلطة شرعية واختراقها بانقلاب عليها، فيأتي من هو أكثر فجورا وعبودية للمستعمر.. يقول لي في الحكم الديموقراطي على عجره وبجره هناك دستور يسود الجميع. فاذا أفلحت القيادة العسكرية في لجم الشهوات المتطرفة للعسكريين، والشبق المستعر للسلطة حتى بين أناس لا يملكون كفاءة قيادة عسكرية وكل مؤهلاتهم هو الدس الرخيص وبيع الوطن للمستعمر فانها تقوم بواجبها خير قيام..

قلت للصحفي الذي جاءني من تركيا وقال: "يقولون عنك بأنك دكتاتور سوريا!" فأجبته: "سترى أننا لا نخشى الحشود التركية على حدودنا، ولا تمخطر الأسطول السادس على شواطئنا.. لقد سلحنا جميع أفراد شعبنا، وسأضع تحت تصرفك سيارة فترى بنفسك كيف الأساتذة والطلاب في الجامعات يحملون بندقياتهم وهم يدرسون، وكيف التجار في متاجرهم، والصناع في مصانعهم، والفلاحون في مزارعهم يحملون أسلحتهم وهم يقومون بأعمالهم. وفي طريق عودتك الى تركيا قل لمندريس أن يسلّح شعبه كما نسلح جميع أفراد شعبنا، ولنر ان كان يبقى في الحكم يوما واحدا!.

لقد أقض الوضع في سوريا مضاجع البنتاغون الذي كانت مؤامراته تفشل واحدة بعد الأخرى. ومن يشاركون بها لا يلبثون أن تخونهم شجاعتهم فيكشفوا المؤامرة قبل وقوعها. ومر عيد الميلاد الذي سبق الوحدة دون أن يزور السفارة الأمريكية أحد خوف أن يتهم بالولاء للإمبريالية الأمريكية! وكان قائد الجيش السوري يردد:

–لن يمروا! فلا يملك مستعمر أن يستعبد بلدا دون معونة الخونة من شعبه!

حين يكون الوطن في خطر

موقف الفريق من الرئيس جمال عبد الناصر عام 1967:

بالرغم من كل السلبيات التي عانى منها الفريق عفيف البزري من جمال عبد الناصر كان يهب لمساندته حين يكون الوطن في خطر، ويبدر من عبد الناصر موقف إيجابي. وها أنذا بين يدي رسالة منه لعبد الناصر في 25 أيار من عام 1967هي وثيقة تاريخية لهذا الموقف.

"السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة.

تحية وبعد، فإننا نتشرف بعرض ما يلي لسيادتكم:

كان للمبادهة التاريخية التي قامت بها الجمهورية العربية المتحدة في سيناء والعقبة، بالإضافة إلى صمود الجمهورية العربية السورية الدور العظيم في فضح المخطط الاستعماري وإرباك المعتدين ورفض كل وجود أو مشاركة للصهيونية أو غيرها في الأرض العربية. وقد هز موقفكم هذا الضمير العربي وفجر حماسه من جديد وأحيى آماله وأعاد للقضية الفلسطينية مكانتها على الصعيدين المحلي والعالمي.

لقد هدف الاستعمار منذ قيام إسرائيل إلى فرض الوجود الصهيوني كشريك للعرب في وطنهم فحاول من جديد أن يؤكد هذا الدور في مؤامرته الأخيرة على سورية ولما يمضي على العدوان الثلاثي عقد من الزمن.

وإن إقفال خليج العقبة وممارسة الجمهورية العربية المتحدة سيادتها الكاملة على أراضيها ومياهها رغم التهويلات الاستعمارية والتهديد بالعدوان قد ركز اهتمام شعوب العالم على خطورة الوضع في المنطقة، وبين مدى تصميم الشعب العربي ووحدة موقفه إزاء العدوان، وتجاه القوى السوداء التي تستهتر بمواقفها الحالية بأمن العرب والسلم العالمي.

ومن أبرز النتائج المباشرة لموقف الجمهورية العربية المتحدة تكشف إسرائيل عن حقيقتها كامتداد عدواني للولايات المتحدة الأمريكية في قلب الوطن العربي. امتداد مرهون بقاؤه بوجود كل أنواع الركائز والقواعد الاستعمارية في المنطقة وبصورة خاصة الأسطول السادس والقواعد البريطانية في الجنوب والخليج العربي وغيره.

فهذا الحدث الكبير الذي نعتز به أكد وحدة المصير العربي تجاه أي عدوان وخرق معايير القوى المزعوم في المنطقة وأعاد المبادهة للأيدي العربية صاحبة الحق الأصيل وفوت الفرصة على المعتدين لضرب الأقطار العربيـــة منفـــردة. وأبرز المكانة الدولية للأمة العربية وبين خطورة تجاهل إرادة وحق العرب في ممارستهم لسيادتهم واسترداد أراضيهم المغتصبة وتقرير مصيرهم بأنفسهم.

وإننا نذكر بفخر واعتزاز الموقف البطولي للجمهوريـــة العربيـــة المتحـــدة، وشعبها العربي المجيد في هذه اللحظات الحاسمة التي تعتبر فاتحة عهد جديد في تاريخ الأمة العربية والمنطلق الصحيح لتوحيد جهود الشعب العربي في ســـبيل قضيته الكبرى. نحييكم يا سيادة الرئيس ونرجو الله أن يكلل جهودكم بالنـــصر المبين وأن يسدد خطاكم إلى ما فيه خير أمتنا."

والرسالة مكتوبة بخط الفريق وموقعة باسمه وأسماء ضباط آخرين شاركوه هذا الموقف.

* * *